

الاتصال غير اللفظي: علاقة الإنسان الجزائري بالزمان والمكان دراسة ظاهرية للنص والواقع

الطالب: رضوان بوجمعة

معهد علوم الاعلام والاتصال - جامعة الجزائر

ناقش الطالب رضوان بوجمعة في الثاني والعشرين جانفي 1998 بمعهد علوم الاعلام والاتصال (جامعة الجزائر) رسالة لنيل شهادة الماجستير في علوم الاعلام والاتصال بعنوان: الاتصال غير اللفظي: علاقة الإنسان الجزائري بالزمان والمكان - دراسة ظاهرية للنص والواقع - تحت إشراف الأستاذ إحدادن زهير. ومنحت درجة: مشرف جدا.

وتضمنت الرسالة ما يلي:

المقدمة

يعتبر موضوع الاتصال من أهم المواضيع التي أصبحت تشكل مجالا أساسيا لانشغال العديد من الباحثين في مختلف فروع العلوم الاجتماعية والانسانية، ذلك

أنهم يعتبرون الإنسان موضوعا وهدفا للاتصال في ذات الوقت.

وقد جاءت هذه الدراسة لتتناول بالبحث موضوعا مركزيا من مواضيع الاتصال، ألا هو موضوع الاتصال غير اللفظي، من خلال الكشف عن تفاعل الإنسان الجزائري مع بعدي الزمان والمكان، بصفتها عنصران أساسيان في سياق الرسائل غير اللفظية.

توجهت هذه الرسالة أساسا إلى شد الانتباه إلى المراحل أو المستويات التي لم نتعود على دراستها، حتى نتمكن من التساؤل عن خباياها بطريقة غير معهودة، لارتباط بنائها بالمنهجية الظاهرية البعيدة عن الطرح الإحصائي أو الامبريقي للظاهرة الاتصالية، والتي هدفنا من خلالها التحول نحو التقرب من الفاعل (The actor) المنتج للاتصال ودراسة المعاني (The meanings) التي يضيفها على أفعاله.

ركزنا في دراستنا هذه على دراسة الفاعل بمعرفة تفاعله مع الزمان والمكان (باعتبارهما سياقان للرسائل غير اللفظية) والمعاني التي يضيفها على هذه التصرفات.

لتحقيق بعض ما ذكرناه، قسمنا البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية معهودة:

1 - الإطار المنهجي: استعرضنا فيه الخطوات المنهجية المتبعة، وخلفيات اختيار المنهج الظاهراتي لدراسة هذه الظاهرة الاتصالية.

2 - الإطار النظري: عرفنا فيه مجال بحثنا بكل خلفياته النظرية التي شكلت هاجسا للدراسات التي قام بها المختصون في علم النفس، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، والاتصال.

3 - الإطار التطبيقي: وفيه جمعنا المعاني التي يضيفها الفرد الجزائري في تفاعله مع الزمان والمكان، من خلال المعاني القيمة (دراسة النص) والمعاني المعيشية (دراسة الواقع في الوضعية المدروسة فقط)، لنتم انتقالنا بعد ذلك إلى قسم ما بعد العلم (After-Science) حيث قمنا بتحليل هذه المعطيات الميدانية.

الإشكالية:

تمحورت إشكالية هذا الموضوع حول معرفة: تفاعل الإنسان الجزائري مع بعدي الزمان والمكان للكشف عن مواقفه الثقافية إزاء هذين البعدين.

ولذلك فإن السؤال المحوري لهذه الإشكالية كان: كيف يتفاعل الإنسان الجزائري مع زمانه ومكانه؟ ولماذا يحدث هذا التفاعل بهذه الكيفية أو تلك دون غيرها من التفاعلات؟

لذلك إشكالية هذا البحث إرتأينا طرح التساؤلات التالية:

- 1 - كيف يتفاعل الإنسان الجزائري (الفاعل المدروس في هذه الوضعية طبعا) مع بعدي الزمان والمكان؟
- 2 - ما هي طبيعة التصرفات الاتصالية للإنسان الجزائري داخل الفضاء العام؟ (السوق الأسبوعي في الريف) - دراسة للواقع .
- 3 - كيف يتعامل الفرد الجزائري - المدروس فقط - مع الزمان بحاضره وماضيه؟ وكيف يتصور ما هو مقبل وما هو مستقبل؟

- دراسة للواقع -

4 - هل لمتغيرات الجنس، السن والمستوى الاجتماعي تأثير ودور في تحديد تفاعل الإنسان الجزائري مع زمانه ومكانه؟

5 - لماذا يضيف الفرد الجزائري هذه المعاني على بعدي الزمان والمكان دون غيرها من المعاني والتفاعلات؟

6 - كيف ورد مفهوم الزمان والمكان في مختلف النصوص (القرآن، السنة النبوية، الأمثال الشعبية، الشعر الشعبي) التي تشكل العالم الثقافي أو عالم المعاني القيمية (بمفهوم الظاهرية) للإنسان الجزائري؟

إن طرح هذه التساؤلات قد يبدو قليلا وغير كاف، غير أن ذلك يرجع إلى المنهجية الظاهرية ذاتها والتي تركز على أن يبدأ الباحث في صمت حتى لا يوجه البحث توجيهها غير موضوعي.

أسباب اختيار هذا الموضوع:

يمكن حصر أهم هذه الأسباب في شبه انعدام هذه الدراسات في الجزائر، كما أن اختيارنا لهذا الموضوع يمكن ارجاعه إلى اندفاع ذاتي ناتج عن قراءة طروحات هال (HALL) القائل بأن مثل هذه الأبحاث تبقى صعبة الفهم والانتشار خاصة في الدول المتخلفة. فكان لنا فضول للعمل على تكسير هذه العقدة أو الحاجز.

أما من الناحية المنهجية، فيعود اختيار الظاهرية إلى محاولة شد الإنتباه إلى المدارس الاجتماعية المعاصرة التي لم يتجه الباحث العربي (بوجه عام) نحو دراستها أو تطبيق بعض أو كل حشياتها المنهجية على الواقع.

الأهداف: وتتمثل على وجه الخصوص في دراسة وكشف خبايا الزمان والمكان من جهة، ومن جهة أخرى شد الإنتباه إلى هذه الحقول الهامة من الاتصال والتي ما تزال مهمة ومنعدمة في الجزائر؛ كما أننا نود أن نساهم في كسر الحاجز المخيف الذي كثيرا ما ارتبط بدراسات السيميولوجيا والاتصال، وبالتالي العمل على أن تكون هذه الدراسة انطلاقة جدية نحو الاهتمام بهذا المجال الذي لا يستهان به كغيره من مجالات الاتصال كما أننا نسعى من خلال هذا العمل إلى عرض المنهجية الظاهرية وطرحها كبديل للمنهجيات الكلاسيكية المرتبطة بالمدارس الاجتماعية الأخرى (الصراعية، الوظيفية ...) والتي أضحت تقليدية بعيدة عن الواقع وعاجزة عن تفسيره.

الإطار الزمني للبحث: ارتبطت الدراسة بأربع فترات، حيث كانت مدة كل فترة 15 يوما، مقسمة على النحو التالي:

1 - الفترة الأولى: امتدت من يوم الجمعة 1 سبتمبر إلى يوم الجمعة 15 سبتمبر 1995.

2 - الفترة الثانية: امتدت من يوم الخميس 21 ديسمبر إلى يوم الخميس 4 جانفي 1996.

3 - الفترة الثالثة: امتدت من يوم السبت 21 مارس إلى يوم السبت 4 أبريل 1996.

4 - الفترة الرابعة: امتدت من يوم الاثنين 25 ماي إلى يوم الاثنين 8 جوان 1996.

وقد حرصنا في اختيار هذه الفترات على توزيعها على الفصول الأربعة للسنة حتى يتسنى ملاحظة التفاعل في أزمنته المختلفة.

الإطار المكاني للبحث: وقع اختيارنا على قريتين من قرى بلدية بني معوش (ولاية بجاية)، وهما «إجذارن» و«اجيس» حتى نتمكن من التقرب نحو الفاعلين (The actors) واستخلاص المعاني التي يصفونها على أفعالهم في علاقاتهم مع الزمان والمكان. ويعود سبب اختيار هاتين القريتين إلى كون الباحث ينتمي إلى هذه المنطقة، أي هو جزء من المجتمع المبحوث ومندمج فيه.

إن ظاهرة «الغربة» (strangers) التي تحدث عنها جرهام شوت GERHAMD "SCHUTTE" تبقى مسألة غير مطروحة في هذه الدراسة، وإلا صعب الوصول إلى النتائج المرجوة من البحث - حسب المفهوم الظاهراتي -، تطبيقا لما أقره شوتر (SCHUTZ): «يصعب على الغريب أن يتصل بالمجتمع القادم إليه، إنه يواجه صعوبات في توجيه نفسه لعدم وجود الألفة بينه وبين الأهالي بخصائصهم المميزة». باختصار فإن الوضعية التي وقع عليها الاختيار في هذه الدراسة، تتوفر فيها كل الشروط التي تمكن الباحث من التغلغل إلى وعي المبحوث لمعرفة المعاني التي يعطيها لأفعاله في حياته اليومية وفي تفاعله مع الزمان والمكان (موضوع الدراسة) وعلى رأس هذه الظروف الألفة "Familliairs" مع السكان في القريتين.

منهج الدراسة وأدواته: إذا كان المنهج هو الانتقال من الفكر إلى الواقع فإنه يصعب تصور أي منهج بدون تيار فكري أو تنظيم، فالتداخل بين المنهج والفكر أمر لا يمكن نكرانه وإلا دخل الباحث في مجال الدراسة من أجل الدراسة أو في مجال العيشية بالتعبير القراني: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا».

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج الظاهري لكونه يتناسب فعلا مع طبيعة البحث وموضوعه أي معالجة الحقيقة من الداخل وليس من الخارج.

لكن لماذا الظاهرية؟ تعني هذه الكلمة دراسة الشيء الذي يبدو للوجدان الشيء المعطى، الشيء بالذات، تطبيقا لما قاله «مارلوبنتي» بهذا الصدد «إننا بداخلنا نجد وحدة الظاهرية ومعناها الحقيقي».

تعتبر الظاهرية الاجتماعية إحدى المدارس الفكرية الحديثة التي تجاوزت إلى حد كبير طروحات النظريات الكلاسيكية التي وصفها «فولدر» في مؤلفه «الأزمة القادمة في علم الاجتماع الغربي» بأنها في طريق التضاؤل.

إن مجال المقاربات الكلاسيكية لم يعد لها دور اليوم فقد حلت محلها المدارس التفاعلية المعاصرة، بعد أن أصبح علماء الاجتماع الوضعي يتقبلون وبكل بساطة أن تكون العلوم الطبيعية نموذجا للعلوم الانسانية، فقاعدة أو مبدأ النظام المنهجي التقليدي يقوم على إظهار مفردة أو متميزة، ففي هذا النظام يقدم الباحث ويظهر على أنه المراقب والموجه للموقف (Instance) والمقرر الوحيد له، ولذلك نجده يتدخل من أجل أن يوجه ويتحكم في الوضعية المبحوثة، ونتيجة ذلك تعود إلى أن المدارس التقليدية بمختلف أدبياتها تجاهلت الفاعل (The actor) وتجاهلت الانسان الذي يقوم بالفعل الاجتماعي وهو ما يتعارض مع جوهر المنهجية الظاهرية، فالمنهجية بالنسبة للظاهرتين ليست نموذجا بأدوات تقنية تحضر وتكون في متناول اليد، بل على الأصح هي مسلك الواقع الذي يكشف عنه الباحث للإنتلاق والدخول في مجال هذا المسلك لا يرسم ولا يقول بل يتضح كلما تقدم العمل، إنها مسألة عفوية إبداعية، ومسألة التصرف باهتمام وعذر مع وضعيات محددة ومعينة.

بعد هذا نعود ونسأل: ما هي الظاهرية؟

يرى الظاهريون أن تعريف الظاهرية ليس هو الأسلوب الأنجع في وصف هذه الأخيرة، ويؤكد IHDE أنه بدون ممارسة الظاهرية، ربما يستحيل فهمها وبدون الدخول في الممارسة من المحتمل على الأقل أن يساء فهم القوة والمضمون الأساسي للظاهرية وهذا ما حاولنا العمل به في بحثنا هذا.

بوتيمر BUTTIMER عرف الظاهرية على أنها طريقة المعرفة فهي تحاول أن تؤسس طابعا إجتماعيا للتجربة الانسانية على عكس الطابع الموضوعي الذي يبحث عن التوضيحات والأسباب، الظاهرية تهدف إلى الوصف الخاص بحقيقة الظاهرة وهذا نفس ما أكدته ويلد WILD بتعبير أو كلام آخر حيث قال: «نستطيع أن نفهم الفكرة، لكن بالفكرة لا نفهم أبدا الوجود والحياة».

الظاهرية وفق هذا وطبقا لما أكدته شوتز SCHUTZ، هي معنية بدراسة عالم الحياة (LIFE WORLD) إستنادا إلى ما أكدته هوسرل HUSSERL من أن الحياة اليومية هي عالم التجارب اليومية التي تشكل مجالا مهما للدراسة الظاهرية، إنه عمل «التفكير في المألوف» (كما هو المجال بالنسبة لدراستنا هذه) هذا العمل يشكل الإنشغال الجوهري للمذهب الاثنوميتودولوجي الذي يتزعمه هارولد غارفنكال HAROLD GARFINKEL هذا الأخير أكد أن: الإثنوميتودولوجية تهدف إلى عرض المبادئ والقواعد التي تشكل أساس التفاعل، هذه المبادئ أو القواعد تكون في بعض الأحيان معروضة عن طريق خرقها، وفي أحيان أخرى، فأنما تكون معروضة عن طريق ترسيخ جانب من المقتضيات والاستلزامات التي تنير وتتحكم في التفاعل اليومي.

ومنذ أن اتجه انشغال علماء الاجتماع نحو فهم «الآخرين» (The others)

علميا، احتاجوا إلى منهجية خاصة هذه المنهجية التي كانت من اهتمامات شوتز SCHUTZ الأساسية.

إن الفهم المفاهيمي (THE CONCEPTUAL GRASP) - الذي له علاقة بفهم الآخرين أو بمفهومنا للآخرين لا يمكن أن يكون نقطة انطلاق التحقيق أو الدراسة بل سيكون نتيجته النهائية. ولهذا كله اعتقد شوتز SCHUTZ أن أهم مشكل يواجه العلوم الاجتماعية هو تطوير المنهجية من أجل التعامل بصفة موضوعية مع المعاني الذاتية للفعل الاجتماعي.

تحديد بعض المفاهيم الظاهرية المستخدمة في البحث:

1 - الموقف: الوقفة أو الوضع العام وسنورد في البحث بكثرة مفهوم الموقف الطبيعي، الموقف الذي لا تتساءل حوله، نعيشه كما هو بصفة روتينية، إنه عالم الحياة اليومية.

2 - التطويق (Bracketing): أداة منهجية في البحث الظاهري وهو الجهد المقصود الذي بذلناه في دراستنا وبصفة قصدية من أجل وضع كل معارفنا والأحكام الموجودة عندنا حول الظاهرة المدروسة بين قوسين (Into Brackets).

3 - المعنى (Meaning): وهو أنواع في بحثنا هذا:

المعنى الذاتي (Subjective meaning) وهو المعنى الذي يضيفه الفرد على أفعاله وتجاربه، والمعاني المعيشة أي كما يعيشها الفرد في حياته اليومية، والمعاني القيمة أي الموجودة على مستوى النصوص التي لها دور في السياق التاريخي لهذا الفرد.

- 4 - الفهم (Understanding): أي استيعاب معنى الفهم، لأن الفهم هو أساس كل تفاعل ذاتي متبادل، فهو ما أسماه فاغنر (WAGNER) بعلم إجتماع الفهم.
- 5 - الذاتية المتبادلة (Inter Subjectivity): وترمز إلى ما هو مشترك عند عدة أفراد، وهي من خصائص المعرفة المادية كما أشار إلى ذلك إليا مازوا (ILIA MASO).

أدوات البحث: استخدمنا أثناء إجرائنا لهذه الدراسة، إضافة إلى أداة التطويق أداتي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بهدف الوصول إلى أهداف البحث المشار إليها سابقا.

والملاحظة بمعناها البسيط هي الانتباه العفوي إلى حادثة أو إلى ظاهرة ما أو إلى أمر معين أما الملاحظة العلمية فهي انتباه مقصود ومنظم ومضبوط إلى الظواهر والحوادث أو إلى الأمور بغية اكتشاف قوانينها. وأكد شوتز SCHUTZ في حديثه عن الاتصال على أهمية هذا النوع من الملاحظة في هذا النوع من الدراسات الذي يشبه دراستنا حيث قدم نماذج المتحدث أو المتكلم (The Speaker) والمستمع (The Listener)، ودعم ذلك بالملاحظ الثالث (A Third Observer)، هذا النموذج الأخير يمثل المثل الأعلى والنموذجي للفرد الذي لا يتعلق، ولكن يحاول أن يعرف ماذا يفعل الآخرون، ولماذا يفعلون ذلك. (وهذه هي المهمة التي كانت موكلة لنا في هذه الدراسة) وقد أجمع الباحثون الظاهريون على اعتبار الملاحظة طريقة، الهدف منها توضيح طبيعة الأشياء أكثر بشأن هذه النقطة وقع اختيارنا على الملاحظة بالمشاركة لكونها الأكثر ملاءمة لطبيعة البحث الظاهري، ذلك أن الملاحظة بالمشاركة هي اشتراك الباحث في حياة الناس دون علمهم أنهم قيد الدراسة حتى يبقى سلوكهم تلقائيا.

كما استخدمنا أداة المقابلة للنفوذ إلى وعي الفاعلين (The actors) لمعرفة وفهم المعاني التي يصفونها على أفعالهم لأن المقابلة تعتبر من أهم الوسائل البحثية، بل ويعتبرها البعض على أنها حجر الزاوية في الدراسات الميدانية وقد دمجنا في دراستنا هذه بين المقابلة الفردية والمقابلة الجماعية، حيث تقابلنا مع الأفراد كل واحد على حدة وتقابلنا مع جماعات حتى نؤكد أو ننفي صدق ما يقوله الفرد الفاعل، وهذا لب الانشغال الذي تحدث عنه شوتر SCHUTZ حول ما إذا كان الفرد يقول الحقيقة أم لا.

ونشير إلى أننا لم نتخذ المقابلة المقتنة كطريق في حواراتنا مع الأفراد والجماعات، بل المقابلة غير المقتنة لأنها مرنة في الحصول على استجابات المفحوصين بدون قيود كثيرة وهو ما يتلاءم مع طبيعة موضوعنا ومنهجنا الظاهراتي الذي لا يعترف بالخلفيات التي توضع أمام البحث حتى يتمكن الفاعل من التعبير عن أفعاله والمعاني التي يعطيها لها بكل حرية.

وقد واجهنا في هذه الدراسة الكثير من الصعوبات نذكر أهمها فيما يلي:

1 - حداثة هذا النوع من الدراسات في المجتمعات الانتقالية لذلك إضطررنا إلى الحديث والتوسع في الإطار النظري عن ماهية هذه الدراسات وسياقها المتمثل، فيما يخصنا في «الاتصالات غير اللفظية».

2 - قلة بل ندرة - إن لم نقل انعدام - المراجع العربية التي تتناول مواضيع الاتصال غير اللفظي وتنظيم الإنسان لزمانه ومكانه.

3 - صعوبات مرتبطة بالترجمة، نظرا لإنعدام التنظير باللغة العربية في هذا المجال الهام من مجالات الاتصال.

4 - حادثة المنهج الظاهراتي في مختلف الدراسات العربية مما جعلنا نبذل مجهودات مضاعفة لإستدراك هذا النقص الذي كان من الممكن أن يتحول إلى نقطة بحث أخرى.

الخلاصة: بعد كل ما سبق، قد يطرح العديد من القراء أسئلة مرتبطة بالأهمية التي تكتسيها مثل هذه الدراسات في مجال تخصصنا، وما يمكن أن تقدمه في عصر الطرق السيارة للإعلام وفي عصر التطور المذهل لوسائل الاتصال الجماهيرية.

إن أهمية هذا النوع من الدراسات مسألة أكيدة طالما أن الإتصال يعتبر أساسا للثقافة بل وأساسا للحياة كذلك، ففي مجال الاتصال الشخصي، فإن مثل هذه الدراسات تساهم في فهم صيرورة هذا الاتصال وأهميته في توجيه الآراء وبلورتها وعلاقة كل ذلك بما يسمى بالاتصال السياسي، والاتصال الاجتماعي، هذا الأخير الذي يبقى مجال الدراسة فيه ضعيفا في الجزائر.

أكدت آخر الدراسات على مستوى الماجستير (مثلا) في معهد علوم الإعلام والاتصال على أهمية الاتصال الشخصي في حملة تدخل في مجال الاتصال الاجتماعي حيث أشارت الباحثة إلى ما يلي: «إن الاتصال الشخصي أقوى أثرا من أي اتصال آخر» ففي العديد من الجماعات - عندنا - ما زالت تحافظ على بعض خصائصها المحلية وتجاهها يبقى الاتصال الشخصي يحتل أهمية كبيرة، الأمر الذي يدعونا إلى البحث ومحاولة الفهم لمختلف التفاعلات والمعاني التي يضيفها الفرد على أفعاله وعلى علاقته بالزمان والمكان، وهو ما لم يتم وما لم يؤخذ بعين الاعتبار في برامج التنمية عندنا، فبعد أن قام النظام الاستعماري بتكسير قوة الجماعات المحلية تجاهل نظام ما بعد الاستعمار هذه الجماعات

والتفاعلات الموجودة فيها، كما أكد على ذلك الباحث الفرنسي مارك كوت MARC COTE على الرغم من أن العديد من المهتمين بدراسة الظاهرة الاجتماعية أكدوا على أن أي تغيير يستهدف المجتمع يجب أن يتم من خلال فلسفة الترابط الكامل بين انسان هذا المجتمع وترايه وحيواناته وزمانه.

أما فيما يخص علاقة مثل هذه الدراسات بوسائل الاتصال الجماهيرية، فأننا نشير إلى أن التلفزيون مثلا، كثيرا ما يعمل على تجاهل تنوع جغرافية عالم الحياة، إذ كثيرا ما يحصرها في بعض الأماكن فقط، وهو ما أشار إليه الدكتور عبد الرحمن عزي بقوله: «الواقع أن التلفزيون يحدث فوضى في المكان الاجتماعي من خلال القفز فوق الأمكنة التي لا ترتبط بحزام من الدلائل القيمة، أضف إلى ذلك تكرار نموذج أحادي احتكاري من المكان (كأماكن الاجتماعات مثلا) على حساب تنوع جغرافية الحياة» ومن جانب آخر نجد أن التلفزيون كغيره من وسائل الاتصال الجماهيرية لا يتردد في خرق المعاني القيمة التي تنظم الانتقال من ما هو شخصي إلى ما هو جماعي كما أكد ذلك الدكتور عزي: «أما الانتقال من الشخصي إلى الجماعي، فإنه يتم عبر بيداغوجية قيمة تسمح للفرد بأن يعدل فيما هو خاص دون أن تهتز مكانته فيما هو عام ويبقى الانسان سرا قبل أن يكون مادة مرئية أمام الجمهور» الأمر الذي يبين أهمية معرفة المعاني القيمة التي تحكم التقسيم المكاني، وبالتالي الخروج عن التشويه والتفكيك والفوضى المكانية التي أحدثها التلفزيون، هذا الأخير الذي ما فتئ يقدم التمزق بين الزمن المعيش في حياة الإنسان وزمن المرئي الذي يقدمه وهو ما أبرزه الدكتور عبد الرحمن عزي بقوله: «أما الأزمنة فتحمل التفكك إذ تتداخل في لحظة من الزمن فيصبح الزمن لا زمني كما يقدم التمزق بين الزمن المعيش في حياة الانسان وزمن المرئي في التلفزيون، فالمرئي لا يحمل بوضوح المستقبل ولا الماضي».

إن دراستنا هذه بتوجهها هذا، تبرز بعض معالم الفرق الموجود بين الزمان والمكان في المعاني القيمة والمعيشة للإنسان الجزائري وبين ذلك التوجه الذي تكرسه وسائل الإتصال الجماهيرية.

إن ترشيد وإثراء الرسائل التي تبثها وسائل الإتصال الجماهيرية أمر أكثر من ضروري، ففي الغرب مثلاً يعيش الفرد أزمة الرسالة مما حدا ببعض المنظرين إلى الحديث عن ضرورة الاتجاه نحو حضارة الرسالة بعد أن أدى الاهتمام بالوسيلة والتقنية إلى فقر البرامج وغياب المعاني وهو من بين ما أشار إليه نيكولا نيقروبونتي NICHOLAS NEGROPENTI في الأخير: «إن القنوات التلفزيونية تتعدد، غير أن برامجها فقيرة، ورغم ذلك فإن كل البحوث الحالية في مجال التلفزيون تهدف في مجملها إلى تحسين الصورة أكثر من اهتمامها بتحسين المضمون».

إن وسائل الاتصال الجماهيرية رغم ما يقال عن دورها في الاتصال، إلا أنها لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الاتصال الانساني المباشر لأن الوسيلة تجهل وفي الكثير من الأحيان ثقافة هذا الإنسان الذي تريد أن تتحدث إليه.

الخاتمة

في الأخير نستطيع أن نخرج بعدة ملاحظات أساسية، من ذلك، أنه لا يمكن أن نقتصر على اللغة المنطوقة أو المكتوبة حتى نوفر اتصالاً جيداً أو كاملاً، خاصة إذا ما علمنا أن السياق الذي يتم فيه بحث هذه الرسالة اللفظية هو سياق غير لفظي، متعلق أساساً ببعدي الزمان والمكان اللذين يشكلان إطاراً أساسياً لدراسة المجاورة أو المقاربة (La proximie) التي أصبحت فيها عامل مراعاة نتائج الدراسة أكثر من ضرورة حتى تحقق العملية الاتصالية نتائج أكبر وأكمل.

إن دراسة الزمان والمكان شكلت بالأمس القريب مجالا رئيسيا لأبحاث هال (HALL) وغيره من الأساتذة الذين نشطوا في مدرسة بالو ألتو (PALO-ALTO) الأمريكية وبعدهم توسع الإهتمام بدراسة هذين البعدين (الزمان والمكان) إلى العديد من المختصين في علم النفس، علم الاجتماع، وعلوم الاتصال، بعد أن اقتنع الكل بأن الفضاء يتكلم والزمان يتكلم، بل كل شيء في الإنسان يتكلم ...

لقد تأكد من دراستنا هذه، أن المعاني القيمة التي تشكل المرجعية الثقافية للإنسان الجزائري والمعاني المعيشة والذاتية التي يضيفها الفرد على تفاعله مع الزمان والمكان تختلف عن الأحكام التي أطلقها إدوارد هال (EDWARDS HALL) عن تفاعل العرب والمسلمين (كلهم دون إستثناء) مع بعد الزمان والمكان هذه الأحكام تبقى بعيدة عن الواقع المدرس، بل وتبقى رموزا فقط، ومن الجانب الظاهراتي فالمسألة مفهومة ما دامت النتائج تتغير بتغير الوضعية المدرسة، فلا يمكن - ظاهريا - أن تحدث نفس الظاهرة بنفس الشكل في وضعية وزمن آخرين فتغير الزمان والوضعية يغيران حتما من الشكل الذي تحدث به الظاهرة لقد تأكد من خلال بحثنا هذا، أن الظاهراتية الاجتماعية كمقاربة نظرية معاصرة تعتبر من بين أهم الخلفيات النظرية والمنهجية والتي جاءت لسد الثغرات الناجمة عن المقاربات النظرية الكلاسيكية (من وظيفة وصراع) والتي أوصلت علم الاجتماع في الغرب إلى أزمة حقيقية، بعد أن قبلت هذه المقاربات وبكل سذاجة أن تكون العلوم الطبيعية كنموذج للعلوم الانسانية.

إن الفهم المفاهيمي (المرتبط بالمفهوم) وليد المقاربات النظرية التقليدية، نتج عنه العديد من الرموز البعيدة عن الواقع بل والمشوهة له في الكثير من الأحيان، وهو ما دعا المفكر اللبناني «علي حرب» إلى تسمية هذه الرموز بالأوهام المرتبطة بخطابات المثقفين العرب على وجه الخصوص، والتي يرجعها المفكر اللبناني إلى

ارتباط أغلب هؤلاء المثقفين بشعار كارل ماركس القائل بأنه على الفلاسفة أن ينتقلوا من الانشغال بفهم العالم إلى العمل على تغييره، وهو ما ولد عندنا مثلاً العديد من الأدبيات التي شوهت وأعاقت فهم المجتمع بل وحكمت على المجتمع قبل أن تفهمه، حيث انطلقت في الحديث عن ما يحدث في المجتمع بناءً على مفاهيم مفاهيمية (أمثلة: الطبقة، الفئة، المثقف، الفلاح، الخ...) حكمت هذه الدراسات على المجتمع انطلاقاً من هذه المفاهيم والتي لا تعدو إلا أن تكون رموزاً صنعت بعيداً عن الواقع، إن هذه الأدبيات التي تستمد روحها التحليلية من المقاربة الصراعية (غالباً) ما زالت موجودة عند الكثير من الباحثين في الجزائر.

في الأخير، إننا نأمل أن تكون دراستنا هذه إنطلاقة جدية لأبحاث أخرى أكثر أهمية، حيث يكون هدفها الأساسي استدراك ما فاتنا واللاحق بركب هذه المجالات الهامة من حقول الإتصال، وذلك سواء في ميدان الاتصال الثقافي، أو في حقل الاتصال الشخصي، أو في مجال الاتصال غير اللفظي. هذه المجالات التي لم نتعود ولا نمتلك تقاليد التساؤل عن خباياها وعن مختلف أبعادها التي أصبحت اليوم واقعا لا يمكن تجاهله أو الاستغناء عنه كما نأمل من جهة أخرى، أن تساهم هذه الدراسة في الكشف عن المقاربات الاجتماعية المعاصرة التي تهدف إلى تجاوز الأزمة التي سببتها المقاربات الكلاسيكية. فلا بد أن يحدث التحول من استعمال الإنسان واستغلاله وتوجيهه (المقاربات الكلاسيكية) إلى دراسته ومحاولة النفوذ إلى وعيه وفهم أفعاله.